الدكتور حسين مؤنس

المرأة في منظور الإسلام



المرأة في منظور الإسلام

الدكتور حسين مؤنس

المرأة في منظور الإسلام



القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م

دار الصحوة
٧ ش السراى بالمنيل – ت : ٩٨٧٩٢٤
حدائق حلون – ت : ٦٨٨٠٧١
القاهرة



توطئة

● « المرأة فى المنظور الإسلامى » لأستاذنا الكبير ، العلامة المفكر الدكتور حسين مؤنس ، دراسة موجزة عن المرأة وموقف الإسلام منها – والعبرة بالكيْف لا بالكمّ – وإذا قلنا : إن أستاذنا غنى عن التعريف ، فإننا لا نلقى الكلام على عواهنه ..

إنه أديب ومفكر .. يفكر بأحاسيس الأديب ، ويتأدب فى أسلوبه بأدب المفكر الأصيل .. وهو – ثانيا – مؤرخ نزيه ، لأنه يكتب التاريخ من منطلق الأمانة والحقائق .. لا منطلق الميول والعواطف ، ومازلنا نذكر له ما كتبه عن الإسلام فى الأندلس : فجر الأندلس ورحلة الأندلس ، ويعيش ما كتبه فى وجداننا .. ومشاعرنا .

وأستاذنا ليس بمعزل عن الفكر الإسلامى .. لا باعتباره فحسب – أديبا ومؤرخا ومفكرا – بل أيضا باعتباره مسلما وثيق الصلة بربه ، كبير الاعتزاز بدينه ، شديد الغيرة على أصالة الفكر الإسلامى

الذى يعانى اليوم ما يعانيه من إفراط وتفريط ، ومن تزمت وتطرف .. وما داخله وشابه مما لا يمت إليه بصلة .. ،

● وهذه الدراسة التى بين أيدينا عن المرأة فى المنظور الإسلامى ، أو تحت مجهر الإسلام .. دراسة موجزة ، ولكنها مستوفاة ، مهد لها بمقدمة غاية فى الدقة ، تصلح وحدها موضوعا مستقلا بذاته .. ثم عرض لمركز المرأة وعلاقتها بالرجل فى الإسلام .. وهذه العلاقة تقوم على دعامة أساسية مؤداها أن المرأة شريكة حياة الرجل ، وشريكته فى المسئولية عن رعاية البيت .. وليس على أنها جارية له أو خادمة .

ثم عرض للقوامة .. وأكد أن الإسلام لا يعتبرها استعلاء من الرجل عليها ، أو استبدادا بها ، بل يعتبرها وسيلة تحفظ مسيرة البيت .. وليست غاية فى ذاتها .. يستند الرجل إليها فى ممارسة ديكتاتوريته .. ثم عرض لعقد الزواج ، حيث يعتبره الإسلام عقد زواج لا ينعقد إلا برضى الطرفين .. وليس عقد شراء ..

● وأخيرا وليس آخرا :

نعتقد أن هدف أستاذنا الرئيسى من هذه الدراسة ، هو تأكيد أن الإسلام قد حفظ على المرأة إنسانيتها بما لم تبلغه سائر التشريعات الأخرى قديمها وحديثها ، وأستاذنا قدم لنا النصوص برؤية إسلامية

خالصة ، بتعمق فكر وسعة أفق ، ولقد أنصف الإسلام بإنصاف المرأة ممن ظلمها باسم الإسلام والإسلام براء من ذلك ، ظلمها أولئك الذين حفظوا النصوص ولم يفقهوها .. وزعموا بذلك أنهم مدافعون عن الإسلام .. والحق أن الإسلام فى غنى عن دفاعهم ..

هذه كلمات لا محاباة فيها لأستاذنا .. لأنه فى غنى بأصالة فكره عن أية محاباة .

وبالله التوفيق **دار الصحوة**

مقدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الرحمة المهداة .

وبعد . فهذه أفكار جرى بها قلمى فى مقالات نشرتها فى مجلة أكتوبر حول مركز المرأة فى مجتمعنا الإسلامى الماضى والحاضر ، وقد أكرمها الله بحسن اللقاء من الناس ... وأرجو أن تنال الثواب من الله ... فرضا الله هو الغاية العظمى .

وقد جمعت هذه الآراء وأطلت النظر فيها . وضممت بعضها إلى بعض ، وسقتها فى هذا الكتاب الذى أرجو من القارئ أن يعتبره ورقة عمل وبداية حوار ؛ لأن قضية المرأة ومركزها فى بلادنا لا ينبغى أن تندرج فى عالم الإهمال والنسيان إلا إذا وصلنا فيها إلى قول نافع عادل يطبق تطبيقًا سليما ، فإن المرأة نصف المجتمع فعلًا لا قولًا ، والأسرة نواة المجتمع ، وأظن أننا متفقون على أن جانبا كبيرا مما نعانيه يرجع إلى تدهور البيت المسلم فى كثير من البلاد ، وعجزه عن أن يقوم بواجبه فى تربية الأولاد أو حتى فى تسيير أموره تسييرا سليمًا .

البيت أساسا هو بيت الزوجة ، فهى راعيـة الزوج والأولاد وليست بحال خادمة الأولاد ، أو جارية الزوج . والمرأة هى أحد العمادين اللذين تقوم عليهما الزوجية . ومن ثم فإن مجتمعنا هذا لن يصلح حاله إلا إذا وصلنا إلى حلول معقولة مقبولة لمشاكل بيت الزوجية ومكانة المرأة وحقوقها وواجباتها .

ومن سنة ١٩٠٤ ، وهى السنة التى ظهرت فيها الطبعة الأولى من كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » وقضية المرأة ومركزها فى مجتمعنا على بساط البحث . وقد ظهرت من نساء هذه الأمة سيدات خضن معركة المرأة بشهامة وقوة ذكاء والتزام كامل بكل ما جاء به الإسلام .

ولكننا مع الأسف الشديد نعيش فى فترة ارتداد إلى بعض عصور التخلف والسبب الحقيقى فى ذلك يرجع إلى حقيقة تاريخية يعرفها أصحاب علم التاريخ وهى أن الأمة من الأمم إذا عجزت عن مواجهة مشاكل الحاضر والمستقبل ارتدت إلى الماضى تلتمس فيه العزاء ، وحكمة الماضى لا يمكن أن تقدم للإنسان أكثر من العزاء ، وحكماء الماضى وعلماؤه ربما يكونون قد حلوا مشاكل عصورهم .. ولكنهم قطعًا لن يحلوا لنا مشاكل اليوم ، وأنا أجل شيوخ الماضى وأعرف أقدارهم فلا يزعمنّ أحد أنه أكثر تقديرا منى للحافظ ابن حجر أو لابن حزم أو

للحافظ ابن تيمية ومن فى أقدارهم ، ولكننى أقدرهم على أنهم ماض مجيد ، والماضى وإن أثرى الحاضر فإنه لا يحل مشاكله .

وما دام لدينا القرآن والسنة فهما وحدهما اللذان يستطيعان أن يقدما لنا الحلول على أن يكون التماسنا للحلول فيهما قائما على أساس ظروف عصرنا لكى نستطيع أن نحل مشاكلنا .

وإليك مثالًا من هذه النظرة ، فقد فرحنا وصفقنا لما أسميناه قانون الأحوال الشخصية الجديد ، وقلنا إنه خطوة إلى الأمام وربما كان فيه بعض ذلك ولكننى أقف أمام إحدى مواده وهى التى تقول : إن الرجل الذى يطلق امرأته فللمطلقة الحق فى أن تظل فى بيت الزوجية على أنها حاضنة للأولاد حتى يبلغوا السن الذى يجوز لوالدهم فيه أن يكون وصيا بحسب ما يقول الشرع . فإذا لم يكن لها ولد كان عليها أن تغادر البيت . فلننظر إلى هذا فى ضوء الإسلام الذى هو عدل كله ، ومنطق كله ، وإنسانية كله ، ونسأل إذا كان لدينا بيت واحد وسئلنا : لمن نعطيه ، لرجل أو امرأة طلقها ؟ الجواب – إسلاميا ، ومنطقيا ، وإنسانيا – للمرأة ؛ لأن الرجل لن يتعرض لأذى إذا تركه دون مأوى ، ولكن من المؤكد أن المرأة المطلقة تتعرض للأذى بل للفساد إذا تركت دون مأوى يكنها ويحميها . هكذا يقول العقل ، وبهذا تحكم الإنسانية

وما دام الإسلام كله رحمة وإنسانية ودرع فضيلة ، فهذا دون غيره يكون حكمه ، فتأمل والله كيف صنعنا هذه المادة وقلنا إنها من الإسلام ، وهى تخالف الإسلام وإنسانيته وارتباطه الدائم بالعقل والواقع ... ولو قال النص : (كان عليها أن تغادر البيت إذا كان لها مأوى آخر وإذا لم نخش عليها الضياع والانحدار) لكنا نؤيده بكل قوة .

والحق أن أجيالنا الماضية فسرت كل ما يتصل بالمرأة فى الإسلام وفق ظروفها ، وبحسب ما يتفق مع النزوع الغريزى المركب فى طبع رجالها نحو السيادة على المرأة والاستبداد بها !! ثم قالت : هذا هو حكم الإسلام فى المرأة .

وأنت تعرف عناية الإسلام بالأيتام وأموالهم وحقوقهم ، وحرصه على أن يتمتعوا بأكمل رعاية ، وأن تحفظ أموالهم فى أمان فى وصاية رجال من أهل الدين والعفة والعدل والتعاون ، وهذا الوصى لا يجوز له أن يأخذ من مال اليتيم شيئا لقاء إشرافه عليه وعلى أمواله إلا إذا كان محتاجًا ، وفى هذه الحالة :

﴿ فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ . سورة النساء آية ٦ .

﴿ وَآتُوا الْيَتَامىٰ أَموالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بالطَّيِّبِ وَلَا تأْكُلُوا أَموالَهُمْ إلَى أَمْوَالِكُمْ إنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ . سورة النساء ، آية ٢ .

فتعال وانظر معى كيف جعل فقهاء العصور المتأخرة الوصاية عى أموال اليتامى من اختصاص السلطان ، ونحن نعرف مكان بعض سلاطين العصور الوسطى من العفة والأمانة ، وكيف أن كل مال وصل إلى أيديهم كان بمثابة المال الضائع ، فإذا لم ينهبه السلطان نفسه نهبه رجاله ، فكيف أجاز الفقهاء وأولهم أبو يوسف إنشاء ديوان اليتامى أو الأيتام ووضعه فى يد السلطان يولى عليه من يشاء ؟

ولا أريد أن أقول لك : إن أموال اليتامى كانت نهبت فى كل بلاد الإسلام وضاعت حقوقهم نتيجة لهذا التشريع الذى ارتضاه فقهاء العصور المتأخرة وأنكره الشافعى وابن حنبل وأصحابه ، وقالوا : إننا لا نعرف شيئا اسمه وصاية السلطان على أموال الناس ، لأن السلطان هنا يراد به رجال السلطان وكيف نستوثق من عدالة رجال السلطان ؟

لأن السلطان كان بعد ذلك يقسم أمثال هذه الوظائف بين رجاله فيولى على الأجناس (أموال الأوقاف) وعلى أموال اليتامى من يشاء . وفى هذه الحالة يكون من يشاء السلطان واحدا من حاشيته ، وإذن فهم عندما أجازوا ذلك إنما كان لهم من وراء ذلك غرض ، وهو أن تصير هذه الأموال إليهم دون غيرهم . ولا يخفى على أحد منا ما كان يجرى على أموال الأوقاف واليتامى من عدوان على أيدى السلاطين

ورجالهم وبخاصة فى العصور المتأخرة عندما كانت وظائف الإشراف على أموال الأوقاف ـ بما فيها أوقاف المساجد ـ تباع لمن يدفع أعلى ثمن ، لكى يطلق الوصى بعد ذلك يده فى أموال الأوقاف وأموال اليتامى .

وهذا كلام شكا منه أجلاء الفقهاء ، من أمثال الحافظ ابن حجر والقاضى المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ، والمؤرخ تقى الدين المقريزى ، وغيرهم كثيرون . وظلت هذه الأحوال سائدة خلال العصر التركى واستمرت كذلك خلال القرن التاسع عشر .

والموقف الظالم الذى تقفه غالبية الناس عندنا من المرأة إنما هو تراث تلك العصور الإسلامية المتأخرة وحكامها وفقهائها ، وهى ليست بحال نابعة من روح الإسلام الصحيح . وقد حكيت فى هذه الدراسة حكايات كثيرة ترينا حقيقة موقف الإسلام من المرأة كما بينه الرسول ﷺ .

وهاهنا حكاية أخرى وقفت عليها فيما قرأت بعد كتابة هذه الفصول ، فقد قرأت فى الاستيعاب لابن عبد البر ! خنساء بنت خالد من بنى عمرو بن عوف النجارية التى تأيمت فى أحد ، وكانت متزوجة من أنيس بن قتادة الأنصارى الذى استشهد فى أحد ، فزوجها أبوها رجلًا لا ترغب الزواج منه ، فذهبت إلى رسول الله ، وقالت : يا رسول

الله إن أبى أنكحنى ، وإن عم ولدى أحب إلى ، فجعل النبى ﷺ تطليقها بيدها ، ورد الزواج الأول ، فخطبها أبو لبابة بن عبد المنذر ، فأنجبت له السائب .

فانظر إلى حس الرسول الأكرم وتقديره للمرأة وعدله معها . فهذه امرأة زوجها أبوها إلى رجل لا ترضاه ، فرفعت أمرها إلى الرسول ، وقالت : إن الزواج الذى فرضه عليها أبوها يسيىء إليها ، وإنها تفضل لو تزوجها عم ولدها أى أخا زوجها المستشهد ، فلم يسائلها الرسول فى ذلك ، وإنما أنفذ لها ما أرادت . ونشأ من ذلك تشريع أخذ به الفقهاء من بعد . وهو حق الثيب فى أن تختار من تتزوجه .

وهذا المثل إذا أضفته إلى الأمثلة الأخرى الكثيرة الواردة فى هذه الفصول خرجت منها بأن روح الإسلام الصحيح بعيدة جدًّا عما عليه غالبية الناس عندنا اليوم فى حق المرأة ، وتأكدت من أن ما هللنا له وحسبناه إصلاحًا لا يعد شيئا إلى جانب حقوق المرأة التى ما زالت محرمة عليها باسم الشرع . والشرع منها بعيد .

فى أحيان كثيرة جدًّا تشعر أن الإسلام أكبر وأرفع من أن ينهض المسلمون بحقه ، لأن الإسلام يمثل مستوى إنسانيا رفيعا ، لم تصل إليه الجماهير عندنا . بل الكثيرون ممن يحسبون أنفسهم من أهل العلم والفهم

وحسن التقدير . لأن المسألة هنا مسألة رقة إنسانية وشعور كريم وإدراك لحقائق حياة الأمم والشعوب . فإن المرأة آخر الأمر هى شطر المجتمع وأساسه . وهى ليست جارية الرجل ولا ملك يمينه ، وإنما هى شريكته وحاملة مسئولية المجتمع معه . وأحيانا نجدها أعقل من الرجل وأذكى وأقدر على حمل المسئوليات ، فإذا كان المجتمع مجتمعا فاضلا واعيا وجدته مجتمعا رفيع المستوى قادرا على الإفادة من ملكات كل أفراده رجالًا كانوا أم نساءً .

وبعد فهذه كلها خواطر مسلم مهموم بأمر المسلمين باكٍ على ما هم فيه من سوء حال وتأخر ، بل تمسكهم بهذا التأخر ومعاداة لكل ما ينفعهم وبخاصة فى أيامنا هذه !!!

أصلح الله لنا أحوالنا ، ورد علينا عقولنا ، وجعلنا من شعوب الأرض التى ترتضى حكم الشرع والعقل وصالح المجتمع فى كل تصرفاتها .. ونحن إذا شاء الله أن يرزقنا هذه البصيرة رأينا أنفسنا ـ فيما يتصل بالمرأة ـ بعيدين بعدا شاسعا عن حكم الإسلام وروحه ، وإلى هذا يرجع إليه جانب كبير من أسباب ما نعانيه من جحود وتحجر وتأخر وفقر وعجز عن الإنتاج . كشف الله عن عقولنا الغشاوة وأنهضنا من العثار . إنه سميع مجيب .

د / حسين مؤنس

القاهرة فى محرم ١٤٠٧ هـ

مركز المرأة وعلاقتها بالرجل فى الإسلام

المفهوم ــ إسلاميا ــ أن كل مسلم مؤمن قائم بفرائض الإسلام وسننه رجل دين ، أما رجال الدين بالمعنى الشائع على أقلام بعض الكتاب فجماعة لا يعرفها الإسلام ، وهم فى المسيحية البابا والكرادلة ــ وهم أمراء الكنيسة ــ وليس فى الإسلام أمراء للدين ، والأساقفة وهم أمراء الدين فى النواحى ، وبقية القسيسين أى كل من تضمهم مثلا الكلمة الإنجليزية (كليرجى Tηє ϑєϱγ) ، وليس لدينا فى الإسلام كليرجى أو كليريكس ϑєϱϑ ، لأن هؤلاء جميعا موظفون فى هيئة دينية كبرى ، وظيفتها الوساطة بين الله وعباده ، فالله ــ فى عرف هذه الديانة ــ قد نصب الحوارى بطرس ، بلسان عيسى بن مريم عليه السلام قاعدة كنيسته أى أساس الجماعة المسيحية ، لأن الكنيسة Σooλosια فى أصلها هى جماعة المؤمنين ، وقال له : أنت بطرس (أى أنت الصخرة) ، وعليك أبنى كنيستى ، وبطرس خليفة الله على الأرض ، وخلفاؤه ورثة ذلك الميراث العظيم ، وهو على هذا سلطان

عظيم ، وهذا التنظيم الكنسى المحكم هو نظام دولة الله التى تقف بين الله وعباده ، وهم الذين يقودون الصلاة ، بل هم وحدهم الذين يصلون ، أما من يحضر الصلاة أمامهم فهم يؤمنون على ما يقول القس ، ومن هنا فإن رجال هذه الدولة لهم سلطان مادى وحق معلوم فى أموال أهل دينهم ، ومن ذلك كله لا نعرف فى الإسلام شيئا ، إنما لدينا فى الإسلام علماء بكتاب الله وسنة رسوله ، وما كان البخارى ومسلم ومالك والشافعى وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه وبقية سلسلة الذهب التى جمعت لنا حديث رسولنا الأكرم ، ووضعت لنا مناهج تطبيق شرعنا الحنيف ، ما كان هؤلاء ـ على جلالة أقدارهم ـ إلا علماء وهبوا أنفسهم للإسلام وأهله واستحقوا من ربهم الرضا والرحمة ، ومن المسلمين رفعة المنزلة بصدق الإيمان والصبر على العمل والتقى والعزم على الخدمة ، ومن هنا كانت مراكزهم فى حبات القلوب لا فى درجات الوظائف أو دفاتر السلطان .

وهذا الوضع الجميل للعلماء المخلصين فى عالم الإسلام يأذن لى فى أن أستعرض مع أهل العلم وعامة القراء الأعزاء موضوع المرأة فى الإسلام . والقارئ الصادق دائما صديق صاحب فضل ، والكتابة له دعوة إلى الحوار ، أقول إن ذلك يأذن لى فى أن أعرض هنا أفكارا وتأملات تتعلق بمركز المرأة فى البيت ، ومكانها من الزوج ، وهل نحن فى الحقيقة نعطيها من الحقوق ما أعطاها الله سبحانه ورسوله فى الكتاب

والسنة من الحقوق ؟ وهل موقفنا من المرأة يعطيها الفرصة لكى تقدم لجماعة الإسلام كل ما تستطيع أن تقدمه من خير ومعونة ؟ لأننى ألاحظ أن الكثيرين منا – فى الحاضر والماضى على السواء – لا يزالون يظنون أن هذا العالم عالم رجال وأن المرأة تبع للرجل تخدمه داخل البيت تنجب له الأولاد وتربيهم ، وتقف فى خدمته وخدمتهم ، ولا عمل لها فيما وراء ذلك .

والذى أعلمه من التاريخ – وهو خير مرشد – فيما يتعلق بالواقع والممارسة أننا فى مطلع تاريخنا الإسلامى نرى عند نزول الوحى على رسولنا–صلوات الله عليه– صورة امرأة كريمة عظيمة هى خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وهذه السيدة العظيمة جعلها الله سبحانه إلى جوار نبيه لتشد أزره وتملأ فؤاده أمنا ، فى ذلك الموقف العظيم . وفى فترة الحيرة التى شملت الرسول الكريم عندما فجأه الوحى ، وخاف على نفسه ، كانت خديجة أول من آمن به وصدقه قبل أن يطمئن فؤاده إلى أنه نبى ثم نبى رسول ، وكلماتها التى قالتها لتسكن فؤاده كلمات عظيمات تعطينا صورة بديعة لرسولنا وخصاله التى وهبه الله إياها ليكون أهلا للرسالة : « كلا والله لا يخزيك الله أبدا : إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتُكْسِب المعدومَ ، وتعين على نوائب الحق » ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد

ابن عبد العزى (إلى آخر حديث البخارى) .

وهذا موقف من أم المؤمنين رضى الله عنها يتخطى بها الحد الذى رسمه الرجال عندنا للنساء أو الزوجات ، إنها لم تقف عند حد راعية البيت التى تخدم الزوج وتربى الأولاد ، إنها هنا تشارك فى صميم عملية التنْبِيَة . فإن كل كلمة من كلماتها لها معنى داخلٌ فى صميم تكوين الشخصية المحمدية ، وهو لا يصدر إلا عن عقل واع ذكى يفكر على المستوى العالى ، ولم يقف دورها عند مجرد التشجيع والمواساة ، بل تخطاه إلى فهم ما وراء هذا الموقف ، وهى لم تقف عند ذلك بل لبست ثيابها ومضت بزوجها الكريم إلى ورقة بن نوفل ، وحضرت المشهد العظيم الأهمية بين رسول الله ﷺ وورقة ، وهو مشهد خطا برسول الله ﷺ خطوة حاسمة نحو إدراك حقيقة ما أراد الله به من كرامة ، ومن الواضح أن رسول الله ﷺ دخل عند ورقة خائفا متحيرا ، وخرج من عنده واثقا مطمئنا إلى حين .

وأنا لا يخطر ببالى أن شيئا يقع لرسول الله ﷺ مصادفة ، إنما كل شيء هنا من تقدير العزيز العليم ، ولو أراد الله أن يتجه الرسول ﷺ بنفسه إلى ورقة بن نوفل لفعل ، فما كان أمر ورقة ومعرفته بشئون الدين بغائب عن ذهن أحد من أهل مكة ، ولكن الله سبحانه وضع السيدة خديجة هنا ، وقسم لها أن تقوم بهذا الدور فى أخطر فترة من فترات

حياة الرسول ﷺ ، وهى فترة التنبية ، ليكون للمرأة – ممثلة فى شخص أم المؤمنين خديجة – دور ظاهر لقيام أمة الإسلام ، بل أنا أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول : إن أم المؤمنين خديجة كانت إلى جانب ذلك سيدة بيت وزوجة وأم أولاد كاملة ، فهى الوحيدة من بين نساء الرسول ﷺ التى لم يشكُ الرسول ﷺ منها أبدا .. كانت قائمة بشئون بيتها خير قيام . وكانت محبة لزوجها ، دائمة التعاطف معه ، ثم إنها كانت أما لولد وأربع بنات ، فهى كثيرة العيال ، ولو كانت مهمة المرأة تقف – فى تقدير الله سبحانه – عند رعاية البيت والزوج والعيال دون أن يكون لها تدخل فى غير ذلك لماعسر على أن يطلب الرسول ﷺ إليها أن تقر فى بيتها ويذهب هو إلى ورقة فهذا شأنه ، وشأنه هذا أمر عام يتعلق بالإسلام ومستقبله ، ولكنها كانت هى التى فكرت فى الذهاب إلى ورقة – ونعم الفكر فكرها – وهى لم تفكر فقط ، بل نهضت ودعت زوجها الكريم للذهاب معها فنهض وذهب .

والذى أستنتجه من ذلك – وهو اجتهاد منى – هو أن الله سبحانه أراد أن يكون للمرأة نصيب فى بناء أمة الإسلام إلى جانب قيامها بشئون بيتها وزوجها ، وهذا تقدير من العليم الخبير ، تقدير يخالف ما يقول به أولئك الذين يرون أن الإسلام يقصر دور المرأة فى

المجتمع على البيت والزوج والأولاد دون أن يكون عليها تبعة تجاه الدعوة الإسلامية والبناء العام للمجتمع الإسلامى ، وقد كانت خديجة رضى الله عنها - ببينة التاريخ والواقع وبحسب ما يقرره الرسول صلوات الله عليه - خير أمهات المؤمنين وأبرهن بالزوج والولد ، ولم يمنعها ذلك من أن يكون لها فى بناء أمة الإسلام هذا الدور ، وقد قامت خديجة بدورها هذا على مدى خمس وعشرين سنة من صحبة زوجها صلوات الله عليه ، ومن هذه السنوات خمس عشرة سنة هادئة ناعمة قبل الإسلام ، وعشر سنوات من المتاعب والمحن والمشاق بعده ، فمن يوم نزول الوحى على رسول الله ﷺ إلى وفاة خديجة فى السنة العاشرة للهجرة كانت تلك السيدة العظيمة قسيمة زوجها فى كل ما عانى ، وكانت ذروة المعاناة أثناء حصار بنى هاشم وبنى المطلب فى الشعب ، فقد جهدت خديجة جهدا شديدا ، وكان لخديجة دور فى التخفيف عن المسلمين أثناء هذا الحصار ، فقد كان أول الساعين فى نقض الصحيفة ، وهو هشام بن عمرو بن الحارث بن خبيب بن نصر من أقارب خديجة ، بل كان هذا الرجل يخالف إجماع قريش ويأتى بنى هاشم بالزاد ليلا حتى لا تجوع عيالهم ، وقد أثر الحصر فى الشعب فى صحة خديجة رضى الله عنها ، فماتت بعد نقض الصحيفة بشهور ، ماتت هى وأبو طالب فى وقت واحد تقريبا ، ولكن أبا طالب لم يتأثر بالحصر فى الشعب ،

لأنه كان خارج الشعب طوال فترة الحصر ، وكان يلقى القرشيين ويتحدث إليهم لأنه – رغم تأييده للرسول – لم يكن مسلما أو مؤمنا .

* * *

ولست ألقى بهذا الرأى فى دور المرأة الذى ينبغى أن يكون لها فى المجتمع الإسلامى جزافا ، فما يجوز الجزاف فى مثل هذا الموقف . فلنرجع إلى القرآن الكريم ولننظر إلى وضع المرأة فيه بالنسبة للرجل ، وأنا هنا لا أنظر إلى الناحية التشريعية ، أى إلى نصيب المرأة فى الميراث بالنسبة لنصيب الرجل مثلا ، فهذه وأمثالها مسائل تنظيم اجتماعى ، وهذا حكم الله فيها ، وهو من ثم واجب النفاذ ، ولا علاقة له قط بمقام المرأة بالنسبة للرجل فى الإسلام .

ولنبدأ مع آدم عليه السلام ، فنقرأ فى سورة البقرة (آية ٣٥) : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزَوْجُكَ الجَنَّةَ وكُلَا مِنها رَغَدًا حيثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فنجد الحديث هنا موجها إلى آدم وزوجه معا ، فالله سبحانه أمر آدم وحواء معا بسكنى الجنة ، ونهاهما معا من أن يقربا هذه الشجرة ، فإذا قربا منها كانا من الظالمين ، فسكنى الجنة كانت حقا لآدم وزوجه بأمر الله ، والأمر والتحذير كان لهما معا ، والجزاء كان لهما معا ، وكذلك العقاب ،

فهما متساويان أمام الله فى الحقوق والواجبات ، وما داما متساويين أمام الله فهما صنوان أيضا فى الشرع . وفى الأديان الأخرى نجد أن التى أخطأت وأكلت من الشجرة كانت حواء ، وهى التى أغرت زوجها بالمعصية ، فكان الخروج من الجنة بسببها ، أما فى الإسلام فإنهما صنوان فى المعصية ، وبذلك لا تحمل حواء وحدها وزر المعصية ولا يكون ما أصاب آدم وحواء (وأولاده منها) بسببها ، ولكننا نقرأ فى سورة الأعراف آيات تدل على أن آدم وحواء كلاهما وقع فى المعصية ، وأنهما سواء فيها ، وأن حواء لم تكن وحدها هى العاصية ، وهذه الآيات من سورة الأعراف (١٧ ــ ٢٧) حافلة بالمعانى التى تهمنا فى هذا الحديث ، فلنوردها كلها ونخرج بالعبرة منها :

« ١٩ » ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

« ٢٠ » ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

« ٢١ » ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

« ٢٢ » ﴿ فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وطَفِقَا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما من وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

« ٢٣ » ﴿ قالا ربَّنا ظَلَمْنا أَنفُسَنَا وإن لم تَغْفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ من الخاسرين ﴾ .

« ٢٤ » ﴿ قال اهْبِطُواْ بعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فى الأرض مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ .

« ٢٥ » ﴿ قال فيها تَحْيَوْنَ وفيها تَمُوتون ومنها تُخْرَجون ﴾ .

« ٢٦ » ﴿ يا بنى آدم قد أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وريشًا ولِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذلك من آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يذَّكّرون ﴾ .

« ٢٧ » ﴿ يا بنى آدم لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كما أخرج أَبَوَيْكُم من الجنة يَنْزِعُ عنهما لِبَاسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْءَاتِهما إنه يراكم هو وقَبِيلُه من حيث لا تَرَوْنَهُم إنا جعلنا الشَّيَاطِينَ أولياءَ للذين لا يؤمنون ﴾ .

ففى هذه الآيات كما هو الحال فى آيات سورة البقرة نرى الحديث موجها إلى آدم وحواء معا ، سواء فى الإذن بسكنى الجنة والتمتع بما فيها . أو التحذير من المعصية . أى أن مبدأ التسوية الكاملة فى المسئولية والعقوبة يؤكد هنا بتفصيل جديد له معنى ومغزى بعيد .

وفى الآية (٢٠) نجد الشيطان يوسوس لآدم وزوجه معا ، وفى ألفاظ الآية هنا معانٍ ما رأيت أحدا من المفسرين أشار إليها ، وأولها أن الشيطان عندما وسوس لآدم وزوجه أراد أن يبدى لهما ما ووری عنهما من سوءاتهما .

فما المراد بذلك ؟

المراد بذلك وفيما أرى ، وهذا تفسير حضارى ، لا هو بفقهى أو تاريخى أو لغوى – وهى الاتجاهات الثلاثة التقليدية الكبرى لتفسير كتاب الله – والمراد هو أن وجود آدم وحواء فى الجنة كان وجودا فردوسيا يختلف عن وجودهما على الأرض من كل وجه .

فهما فى الجنة لم ينجبا ولدا ، بل لم يكن فى وجودهما جنس ، لأن الوجود الفردوسى خلود ، فهو لا يحتاج إلى المحافظة على النوع كما هو الحال مع الوجود الأرضى . وكانت أعضاء الجنس موجودة عندهما دون أن تكون لها وظيفة فى الجنة ، ولم يكن لهما إحساس بها بالتالى ، ولكنها كانت موجودة لسابق علم الله بما سيكون من خروج آدم وحواء من الجنة ، إنما كانت هذه الأعضاء مواراة عنهما ، فلا آدم يحس بأنه رجل ولا حواء تحس بأنها امرأة ، إنما هما معًا فى رفقة وصحبة وأنس ومودة ، وهذا الوجود الفردوسى كان مرهونا باعتصام آدم وحواء من المعاصى ،

ولباسهما فى الجنة كان لباس التقوى ، وإبليس نفسه كان يعرف ذلك ، وهو لهذا عندما كان يغريهما بالمعصية قال لهما ﴿ إلّا أنْ تكونا مَلَكَيْنِ أو تكونا من الخالدين ﴾ لأن الملائكة لا تعرف الجنس ، وليس فيهم ذكور وإناث ، وأقسم لهما إبليس على أنهما لن يصيبهما أذى إذا هما أكلا من تلك الشجرة ، فاغترا بكلامه وأكلا من الشجرة ، ووقعا بذلك فى المعصية ، فما الذى حدث لهما عندما وقعا فى المعصية ؟ الذى حدث لهما أنهما تحولا من الطبيعة الفردوسية إلى الطبيعة الأرضية ، أى من مخلوقين فردوسيين إلى مخلوقين أرضيين ، وهنا نبض فيهما الجنس ﴿ فَبَدَت لهما سَوْءَاتُهما وطَفِقَا يَخْصِفان عَلَيْهِما ﴾ (على نفسيهما) ﴿ من ورق الجنة ﴾ ، وهذا هو التغيير الحاسم فى تاريخ البشرية .

فمن ذلك الحين أصبح آدم وحواء مخلوقين أرضيين يخضعان لكل ما يجرى على أهل الأرض ، فينبض فيهما الجنس ، ويكون لهما الولد ويجرى عليهما الموت والمرض ، وكل ما يجرى على أهل الأرض ، ويكتب عليهما الصراع من أجل البقاء ، يتحرك فيهما الجنس من أجل بقاء النوع ، ولعل هذا يدخل فى تفسير قول الله تعالى فى سورة التين : ﴿ لقد خَلَقْنَا الإنسان فى أحْسَن تَقْوِيم * ثم رَدَدْناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصَّالحـاتِ فَلَهـمْ أجر غَيْرُ مَمْنون * فما يُكَذِّبُك بَعْدُ بالدِّين *

أَلَيْس اللهُ بأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ فإن الله خلق الإنسان أول أمره مخلوقا فردوسيا فى مراتب الملائكة ، ولكن طبعه جعل الشيطان يغريه ويخرجه من الجنة ومن الطبيعة الفردوسية إلى الأرض والطبيعة الأرضية .

ولا يفوتنى أن أنبه هنا ـ استنتاجا مما رأيت ـ إلى حقيقة تغيب عن الكثيرين فيما أرى . وهى أن الجنة وما فيها تختلف اختلافا تاما عن الأرض وما فيها ، فآدم فى الجنة كما رأينا يختلف فى موت الشهوة فيه عن آدم فى الأرض ، وحواء فى الجنة مثل آدم غير حواء فى الأرض ، ومن هنا أيضا يكون شجر الجنة غير شجر الأرض ، وفاكهة الجنة غير فاكهة الأرض ، ولكن الله سبحانه يستعمل فى خطابه إلى الناس ألفاظا يفهمون معانيها ، تيسيرا لهم فى إدراك مالا يعرفون من معانى كلمات الله وصوره ، ومن أكبر أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ هل أَدُلُّكُم على تجارة ﴾ ، والمقصود هنا دخول الإسلام ، وهو قطعا ليس بتجارة ، ولكن الله سبحانه يأخذ اللفظ الجارى ويعطيه المعنى السامى ، ويستعمل المعروف تقريبا لمعنى المجهول ، ويسلك فى مخاطبة عقول الناس ما تطيقه عقول الناس .

ارتكب آدم وحواء إذن المعصية فحق عليهما العقاب ، والعقاب هنا ليس لعنة أبدية ، ولكنه مجرد الإخراج من الوجود الفردوسى إلى الوجود

الأرضى . والوجود الأرضى هنا محنة أو امتحان ، لأن الله رسم للإنسان طريق العودة إلى الجنة وهو الدين ، فمن التزم به عاد إلى الجنة ، ومن خالفه فمصيره إلى النار .

وفى قول الله سبحانه ﴿ قال اهبِطوا بعضُكم لبعض عَدُو ﴾ ملاحظة لا ينبغى أن تفوتنا ، فالحديث هنا إلى الجماعة لا إلى آدم وحواء وحدهما ، لأن المخاطب هنا هم بنو آدم الذين سيخرجون إلى الحياة على الأرض ، والجنة لا عداوة فيها ولا عدوان ، لأن العداوة والعدوان من طبائع حياة الصراع وكفاح البقاء على الأرض .

وقد أراد آدم وحواء أن يستغفرا الله عن معصيتهما ﴿ قالا ربنا ظَلَمْنا أنفُسَنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ وقد غفر الله لهما ، وباركهما بعد الخطيئة ، وقال سبحانه وتعالى فى سورة البقرة (الآيات ٣٦ وما يليها) : ﴿ فأزَلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مِمَّا كانا فيه وقلنا اهبِطوا بعضُكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مُسْتَقَرٌّ ومتاع إلى حين * فَتَلَقّى آدَمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعا فإمّا يَأْتِيَنَّكم مِنّى هُدًى فمن تَبِعَ هُدَاىَ فلا خَوْف عَلَيْهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ونلاحظ هنا أمرين هما على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة لعلاقة الإنسان بربه فى الإسلام :

المبدأ الأول وهو أن آدم عندما أخطأ هو وزوجه لم يغضب عليهما الله ، ولا هو حملهما خطيئة المعصية إلى أبد الآبدين ، وإنما هو جازاهما بما فعلا ، فأهبطهما من الجنة إلى الأرض ، وذكر لهما عند أمره بالخروج من الجنة سبب أمره هذا .

ففى سورة الأعراف يذكر الله سبحانه كما رأينا خبر خروج آدم وزوجه من الجنة بسياق مختلف عما هو وارد به فى سورة البقرة ، وفى هذا السياق يقول سبحانه (آية ٢٢) : ﴿ وناداهما ربهما أَلَمْ أَنْهَكُما عن تِلْكُما الشجرة وأَقُلْ لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ فهنا مثال من عدل الله مع عباده ، فهو عندما أوقع بهما العقاب ذكر لهما السبب ، وذلك فضل منه وعدل ، فلا عقوبة إلا بمعصية ، ولا عقوبة إلا ببينة ، وهذا مبدأ أساسى من مبادئ العدل فى الإسلام ، وأساس من أسس التشريع الإسلامى ، طبقه الله علينا فى أكثر من موضع فى آياته الصادقات : ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

والأمر الثانى الذى لا ينبغى أن تفوتنا ملاحظته فى هذا المقام ، هو أن الله سبحانه عندما أخرج آدم وزوجه من الجنة لم يغضب عليهما

غضبا دائما ، فقد أمرهما وأنذرهما ، فخالفا الأمر ونسيا النذير ، فكان الخروج من الجنة ، فهما لم يخطئا عنادا أو جرأة على الله ، بل جهلا وضعفا ، والشيطان أزلهما ثم استغفرا ، وسألا الله المغفرة بعد أن أقرا بالذنب : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحَمْنا لنكونن من الخاسرين ﴾ وزاد الله فى كرمه فتاب عليهما : ﴿ فتَلَقَّى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (البقرة ٣٧) .

وهنا ميزة من ميزات الإسلام الكبرى ، وهو أنه لا يجعل معصية آدم وزوجه خطيئة يحملان وزرها بعد الهبوط من الجنة ، ففى الأديان الأخرى (وخاصة المسيحية) نجد أن هذه المعصية موضوع خطيئة كبرى يحمل وزرها آدم وحواء وأولادها من بعدهما ، فكل واحد من بنى آدم يولد حاملا على كتفيه وزر معصية آدم وحواء ، ولا بد لكل منهم من التكفير عنها ، والخلاص من مغبتها . وفى تفسير بولس للمسيحية ــ وبولس هو الذى ميز المسيحية عن اليهودية وجعلها دينا قائما بذاته ، وهذا هو ما يسمى فى تاريخ المسيحية بالفكر الدينى لبولس The Pauline Theopagy ــ نجد بولس يقول فى تفسيره للمسيحية : إن خطيئة آدم وحواء تلزم أبناءهما جميعا ، وإن الله عندما أراد تخليص بنى آدم من الخطيئة تجسد فى عيسى بن مريم وهبط إلى الأرض

ونادى بالخلاص ، وقال إنه المخلِّص ، وأنكر ذلك منه اليهود (وعيسى ابن مريم عليه السلام كان منهم) وأغروا به رجال الدولة الرومانية ، فقبضوا عليه وعذبوه ثم صلبوه كما تقول الأناجيل المتداولة بين الناس وهو عندما صلب اشترى بعذابه وصلبه خطايا البشر وخلصهم ، ومن هنا فهو المخلص The Savior ، ومن يرد أن يخلص من الخطيئة دخل فى المسيحية على يد أحد رجال الكنيسة بطقوس خاصة ، وأصبح عضوا فى الكنيسة Eceleaia ، أى أنه لابد للمرء لكى يخلص نفسه من لعنة آدم وأولاده من دخول جماعة المؤمنين ، بطقوس تبدأ من الطفولة ، وبدون الدخول فى الجماعة بهذه الطقوس ، وهو ما يسمى باسم Communion يظل الإنسان ملعونا إلى الأبد .

من هذا كله ليس لدينا فى الإسلام شىء . فآدم وحواء عندما أهبطا إلى الأرض نزلاها مغفورا لهما تشملهما بركة التوبة ، وهذه التوبة كانت بكلمات مباركات تلقاها آدم من ربه فتاب عليه ... وهذه من أعظم حسنات الإسلام على البشرية .

الرجل والمرأة قوامة بشروط

بعد أن أوضحنا هذه النقطة نستطرد فى تفصيل ما قلناه آنفًا ، من أن الله سبحانه وتعالى يسوى بين آدم وحواء فى أصل الوجود الإنسانى ، وفى الشريعة التى يخضع لها الجميع ، وفيما يسمى بحقوق الإنسان وواجباته ... ولا محل هنا للقول بأن الله فضل الرجل على المرأة ، فالتفرقة فى حصص الميراث – كما ألمعنا – لا تعنى التفضيل ، وإنما هو تنظيم اجتماعى قدره الله فى حكمته . ومن أمثلة ذلك فى أمور المواريث أن الأب والأم يرثان السدس فى حين أن الزوجة ترث الثمن – عند وجود الولد – وليس معنى ذلك أن الأب والأم خير من الزوجة ، وإنما هى أنصبة وفرائض قدرها الله بحكمته ، ولا مدخل لنا فيها ، ولا سبيل لتعليلها بمنطقنا البشرى المحدود ، الذى يختلف فى طبيعته وكنهه عن حكمة الله وتدبيره ، كما يختلف الوجود الفردوسى عن الوجود الأرضى ، كما ذكرنا سلفًا !!

حقًّا .. إن الله تعالى يقول فى سورة النساء (آية ٣٤) ﴿ الرجال

قَوَّامُون على النساء ﴾ ولكن هذا جزء من آية يكثر تشدق الرجال بها ... والآية ـ بالتأكيد ـ حكم عام ؛ لأن الأصل أن الرجال يتحملون العبء الأكبر ، وعليهم تقع التبعات الجسام ، وهم يحملون هموم الحياة وضراوة صراعها ـ فى الأعم الغالب ـ كما تحكى لنا تجربة التاريخ البشرى حتى اليوم ... وبالرغم من كل المجالات التى فتحت أمام المرأة ... فلا زالت معظم الجيوش (رجالية) ولا زالت معظم رحلات الفضاء كذلك ... وهلم جرا ...

لكن الآية ـ مع ذلك ـ ليست سلاحًا يشهره الرجل فى وجه المرأة ... وهى أيضًا مشروطة بقيامه بأعباء الرجولة وتبعاتها .. أما إذا تخنث الرجل وترجلت المرأة ، فلا يشفع للرجل هذه الآية ، وليس من حقه أن يحتمى فيها لتبرير وضعه الهابط المتدنى الذى لا يليق برجولته !!

والآية القرآنية نفسها ليست سلاحًا على الإطلاق ، بل فيها بعض التحفظات ... ولنقرأها كاملة ... تقول الآية : ﴿ الرجال قَوَّامُون على النساء بما فَضَّل الله بَعْضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصَّالحات قانِتاتٌ حافظاتٌ للغَيْبِ بما حَفِظَ الله ﴾ وكما نرى فى الآية فإن قوله تعالى : ﴿ الرجال قَوَّامون على النساء ﴾ مشروط بشروط قيام الرجل بتكاليف الرجولة ورسالتها ...

ومع ذلك فليس كل رجل أفضل من كل امرأة ... فلرب امرأة صالحة قانتة حافظة للغيب أفضل من كثير من الرجال .. !!

وإذا كان الرجل سكيرًا عربيدًا محرضًا لامرأته على الفساد مهملًا فى عمله – كما نسمع فى بعض الشكاوى والمآسى – فهل يكون هذا الرجل (قوّامًا) على امرأة صالحة قانتة حافظة للغيب بما حفظ الله ؟ !!

وإذا كان الرجل كسولًا تعسًا يستمرئ أن يعيش عالة على زوجته التى تنفق عليه من كدّها أو من مالٍ ورثته عن أهلها .. فهل من حق هذا الرجل أن يكون قوّامًا ؟

إن مثل هذه الشرائح قد فقدت معانى الرجولة ، وبالتالى فليس من حقها المطالبة بحقوقها !!

أما المرأة والرجل – وفق نسق الحياة الطبيعى – ومع قيام الرجل بواجبات الرجولة وحدبه على امرأته وأولاده ، وتطبيقه شرع الله فيما بينه وبين امرأته ... ففى هذه الحالة الطبيعية تكون أحقية القيادة والقوامة من حق الرجل .. وليس معنى أن حق القوامة للرجل أنه ديكتاتور أو حاكم بأمره لا يرد له قول ... فهذا الفهم لا ينسجم مع الطبيعة الإسلامية العامة التى تقوم على العدل والشورى فى كل الأمور وفى سائر العلاقات ...

ولمزيد توضيح قضية القوامة هذه نقول : إن الفضل فى الآية ليس فضلا باعتبار كل فرد، ولكنه فضل باعتبار جنس فى مجموعة ، ليس من ناحية أصل الخلقة ، وإنما من ناحية التبعة التاريخية والاجتماعية الملقاة عليه ... وهو فضل تكليف لا تشريف ، وإذا لم يؤد الرجل حقه انقلب وبالًا عليه ، فعجز المرأة عن الكسب قد يغتفر ، أما عجز الرجل فلا يغتفر ، حتى هو لا يغفره لنفسه إذا كان يملك ذرة من ضمير أو إحساس ... وهذا التفضيل من نوع تفضيل رئيس الوزراء على وزير الداخلية ... وقد أثبت التاريخ الحديث حالات كثيرة كان وزراء الداخلية فيها أقوى من رؤساء الوزارات ، فضلا عن أنه لا غنى عن هذا وذاك ، وفضلا عن أن المرأة تفضل الرجل فى مواقع كموقع الأمومة ، فهى ليست أفضلية مطلقة ، بل هى أفضلية مشروطة من جانب ومحددة بدور معين من جانب آخر ... ولا ننسى لتأكيد هذا المعنى قول الرسول ﷺ للرجل الذى جاء يسأله :

من أحق الناس بحسن صحابتى يا رسول الله ؟

قال : أمك .

قال : ثم من ؟

قال : أمك .

قال : ثم من ؟

قال : أمك .

قال : ثم من ؟

قال : أبوك .

فللرجل الأب هنا من الأفضلية ربع ما للمرأة الأم .

والحقيقة أن الحياة لا تقوم إلا بين عنصرين متكاملين وهما فى النهاية شىء واحد ، وأى تفاوت فى المرأة يكمله الرجل والعكس صحيح أيضا ، ولا يقال : إن شيئًا منهما يمكن الاستغناءعنه ، أو أن أحدا منهما يستطيع أن يعيش بدون الآخر ، فالعقل مثلا هو جمال الرجل وكماله ، ويا ويل الرجل الذى تغلب فيه العاطفة العقل ... والمرأة على العكس من ذلك ، إن جمالها وكمالها فى عاطفتها ، ويا ويل المرأة التى تفقد ينبوع الحنان والرحمة والعاطفة نحو زوجها أو أولادها ، وبالعقل والعاطفة معا تمضى الحياة ، ولا تقل العاطفة أهمية عن العقل ، فليس بالعقل وحده يحيا الإنسان لكن العقل لابد أن يقود ، وقيادته تعطى العاطفة حجمها المناسب ودورها الصحيح ... ولنتصور بيتا يقوم على العقل وحده ، ولا مكان فيه للمسات الحنان التى تفيض بها الأمومة ... ولنتصور بيتا آخر يقوم على العاطفة فيه وحدها ولا مكان فيه للعقل

الذى تمثله فى الأصل قيادة الرجل ، إن كلًّا من البيتين معوج .

وهناك لفتة أخرى تتصل بهذا الجانب ، فإن فطرة الله قد كلفت المرأة بمهام خاصة تعجز معها عن القيام بأشياء يستطيع الرجل أن يقوم بها ، ففى فترات الحيض والحمل والنفاس وهى من لوازم المرأة قد تعجز المرأة عن القيام ببعض الأعباء التى تستطيع هى نفسها القيام بها فى وقت آخر .

* * *

ومن النساء كثيرات من اللاتى ينطبق عليهن قول المتنبى

ولو كل النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وماذا نقول فى خديجة أم المؤمنين التى سمى عام وفاتها بعام الحزن ، والتى تعد من زعيمات النساء المبشرات بالجنة : ففى الحديث المجمع عليه الذى رواه البخارى ومسلم أتى جبرائيل إلى رسول الله فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .

فليسّ الرجال فقط هم المبشرون بالجنة ، بل بعض النساء مبشرات بالجنة كذلك ، ومع ذلك فقلما يذكر بعض الرجال المتعصبون هذا الحديث ، لأنه كبر عليهم أن تبشر امرأة بالجنة ، حتى ولو كانت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها .

ومن أعجب أحكامهم فى هذا المجال ما جاء فى مسند أحمد ــ وما أعظم أحمد ومسنده ــ وروته كتب الصحاح أيضا ، من أن عائشة أم المؤمنين غارت من كثرة ذكر رسول الله للسيدة خديجة ، فقالت كلاما أغضب النبى حتى بدا الغضب فى وجهه ، فقال فى خديجة : « ما أبدلنى الله خيرا منها ، وقد آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء » فهل يبقى بعد ذلك شك . فى تفضيل رسول الله لأم المؤمنين خديجة على غيرها . فاسمع هنا ما يقوله الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٣ / ١٢٨) « وهذا ظاهر فى التقدير على أن عائشة خير من خديجة إما فضلا وإما عشرة إذ لم ينكر عليها (على عائشة) ما قالت فى حق خديجة مما أغضب رسول الله ﷺ ولا رد عليها ذلك كما هو ظاهر فى سياق البخارى رحمه الله » .

* * *

لقد أباح الله تعدد الزوجات ، ولكن حرم الظلم ، وفرض **العدل** ﴿ فإن خِفتُم ألَّا تَعْدِلوا فَواحدة ﴾ أما إذا كانت لديه القدرة على العدل فلا مانع ، إذا أملت الظروف ذلك ، سواء أكانت شخصية أم اجتماعية فلا مانع .

والطلاق ضرورة قد تفرضها الظروف لكنه أبغض الحلال ... وعلى الفقهاء المسلمين في عصرنا أن يعيدوا تقويمهم لموقفهم من المرأة .. إن عليهم الحنو على المرأة كما كان الرسول ﷺ يحنو عليها .

وأنا فى كل ما يتعلق بشئون الحياة أتأسى دائما بعمل رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ ما كان يرضى الظلم أبدا . وما قَصَدَته امرأة شاكية من زوجها إلا نظر فى أمرها ، وأنصفها وأخذ لها حقها من زوجها . ولم يطلق رسول الله ﷺ امرأة قط . وقد أباح الله له أن يُدْنِى من أزواجه من يشاء ويرجى من يشاء ، فظللن جميعهن فى عصمته ، ولو أن الفقهاء تأسوا برسول الله ﷺ حقا ما طلق واحد منهم امرأة تزوجها ، لأن الطلاق يكسر قلب المرأة ويؤذيها أشد الأذى فى مشاعرها ، والمسألة هنا ليست مسألة مال أو نفقة ، فإن الذى بين الزوج وزوجته أعز وأسمى من المال والنفقة ، وقد عرفت قاضيا شرعيا كان صديقا لوالدى أتته امرأة فى مجلس قضائه تطلب نفقة من زوجها

لنفسها وعيالها الثلاثة ، وكان الزوج نجارا ميسور الحال ، فقضى القاضى للمرأة بجنيهين نفقة ، ولكل واحد من العيال بجنيه فى الشهر ، والمجموع خمسة جنيهات ، كانت المسكينة تدفع منها جنيهين للسكن . فسألت القاضى فى ذلك عندما زارنا ، فكان جوابه ثلاث كلمات : كلهن يستاهلن الحرق !

فهل رجل كهذا يعرف الله ورسوله ؟ ولو أنه قرأ سيرة المصطفى ﷺ لرأى كيف كان صلوات الله وسلامه عليه رفيقا بالنساء حريصا على حقوقهن ، وأحكامه تدل على فهم عميق لطبائع البشر مع المعرفة التامة بشرع الله الحنيف ومراميه ومعانيه .

وفيما يتعلق بالمرأة أذكر حكاية قصيرة تدلك على عظيم تقديره لها ، وسترد فى سياق مقالى هذا حكايات أخرى من آثاره ﷺ ، فقد روت كتب تراجم الصحابة ، أن امرأة كانت تَقُمُّ (تزيل القمامة) المسجد النبوى فافتقدها الرسول الأكرم أياما ، فسأل عنها ، فقيل إنها قد ماتت ، فبدا الحزن فى وجهه ، ولام أصحابه على عدم إبلاغهم إياه خبر موتها ليصلى عليها ويشهد جنازتها ، ثم سأل عن قبرها فدلوه عليه فقام وصلى عليها .

فهذه يا أخى إمرأة مؤمنة كريمة عاملة وقد رآها الرسول ﷺ تعمل فى المسجد الذى يكثر الرجال فيه طول اليوم فلم ينكر عليها ، وإنما عد

ذلك من حسناتها التى تستحق بها من رسول الله ﷺ أن يصلى عليها ويشهد جنازتها إذا ماتت ، فلما فاتته فرصة ذلك ذهب بنفسه إلى قبرها وصلى عليها .

ونحن لا ننكر أن المرأة المصدر الأكبر للجمال والإغراء ، وأن لابد لها من حصانة ومن اتباع أوامر الشرع التى تحول دون تدمير الحياة وتحويل المجتمع الإنسانى إلى مجتمع حيوانى لا مكان فيه لمصلطحات الشرف والعفة والأنساب ، لكننا مع ذلك نرى أن الأساس لتحقيق هذه المعانى الإنسانية الراقية وجود الإيمان الصادق ؛ لأن الإيمان لا يتجزأ ، وأن العفة والحصانة تنبعان من الإيمان ، والمرأة المحصنة محصنة سواء أكانت فى بيتها أم فى الطريق . والحجاب الأساسى للمرأة هو اعتصامها بالله واعتزازها بنفسها ، وحتى هند امرأة أبى سفيان – وصاحبة الأفاعيل فى حمزة رضى الله عنه – ذهبت فى نسوة أخريات ليدخلن الإسلام على يد الرسول ﷺ فكان مما قال لهن تحريم الزنا ، فقالت : وهل تزنى الحرة ؟

فهذه امرأة جاهلية بل جاهلية عاتية ، ولكنها كانت حصانا تعتز بنفسها ، ولهذا فقد تعجبت من أن تكون هناك حرة تبذل عرضها فما بالك بالمؤمنات ؟ وعلى طول ما قرأت فى السيرة لا أذكر أن الناس كانوا

يثقلون على الرسول فى السؤال عن هذه السفاسف التى لا يشتغل بها إلا الرجل الخلى المتنطع ، وأذكر أننى قرأت ذات مرة فى إحدى روايات هنديك أبسن (أغلب الظن أنها أعمدة المجتمع) حديثا بين رجل وامرأته يجرى هكذا على وجه التقريب :

الزوج : تكفينى كلمة واحدة منك : هل خنتنى فى سفرى مع فلان ؟

الزوجة: هذا السؤال فى ذاته يكفى لكى أطلب الطلاق .

الزوج : كل ما أريده هو أن أطمئن .

الزوجة : لنفترض يا هانز أن صديقا لك ترك حافظة نقوده على مكتبه وخرج لبعض شأنه وأنت جالس ، فهل تمتد يدك إليها ؟

الزوج : طبعا لا .

الزوجة : لماذا ؟

الزوج : عجيب سؤالك هذا .. إن يدى لا تمتد إلى حافظة نقود رجل آخر لأننى لست لصا ..

الزوجة : هذا هو الرد على سؤالك . إننى لا أخون زوجى لأننى امرأة محترمة أمينة مع نفسى قبل أن أكون أمينة معك ..

الزوج : معذرة .. أنت تعرفين أننى أحبك .

الزوجة : الحب لا يبرر لك الشك فىَّ .

الزوج : إذن فلتنسى الموضوع ..

الزوجة : تنسه أنت .. أما أنا فلن أنساه أبدا .

الزوج : وتطلبين الطلاق ؟

الزوجة : كنت أطلبه قبلا ولكننى الآن أصر عليه .

الزوج : مارتا لا تهدِّى بيتنا .

الزوجة : وأين هو بيتنا هذا ؟ لقد هدمته أنت يوم شككت فىَّ . هل تتصور أننى أمينة معك ما دمت أنت هنا فإذا سافرت لم أعد أمينة ؟ .. هل أنت يا إريك الحارس على شرفى ؟

الزوج : أرجوك يا مارتا لننس هذا الموضوع ..

الزوجة : الرجال الذين على شاكلتك غير جديرين لأن يكونوا أزواجا لسيدات محترمات ، فابحث لنفسك عن زوجة غيرى تحت مصباح الشارع على أى ناصية طريق . وداعا .

وهذا المشهد الذى لا ينسى من روائع أبسن ، يعين لك الحد الفاصل بين المرأة المحصنة وغير المحصنة . فالمرأة المحصنة حصينة بنفسها وفى ذاتها ، وليست حصينة لمجرد أن زوجها يغلق عليها البيت ، فما بالك وعندنا ناس يرون أن الرجل ينبغى أن يحتفظ بحذاء امرأته فى دولاب

مغلق بالمفتاح حتى لا تخرج ؟ وأنا أيام كنت طفلا ثم صبيا عشت فى حى شعبى ورأيت كثيرا من النسوة الملفوفات فى الملاءت السوداء والمحبوسات فى البيوت ، ومع ذلك رأيت فيهن فسادا كبيرا ، والسبب فى ذلك أن الحجاب الظاهرى لم يقف وراءه وعى إيمانى ولا حجاب خلقى ولا ثقة من الرجل فى شرف المرأة وعفتها ، وهى أمور يجب أن تصحب ، بل تسبق الحجاب الظاهرى .

ومع ما فى المجتمع الأوربى من فساد لا يستطيع أحد أن ينكره فقد رأيت بعض الأسر التى تحترم العفة والشرف وتثق فى كلمة المرأة ووعدها وارتباطها بزوجها وأولادها ، وبالطبع فالنموذجان يحتاجان إلى تعديل ، وهما معًا ليسا من الإسلام فى شىء ، ولابد من إشعار المرأة بكرامتها ومسئوليتها الشخصية عن عفتها وشرفها ، ولابد من تثقيفها الثقافة الإسلامية الرفيعة .

وفى كل بلاد العالم يقاس مستوى الأمة بمستوى رقى المرأة وقيامها بواجبها فى البيت وفى المجتمع ، والأمم المتقدمة الناجحة — مع تحفظاتنا على بعض ما عندهم — هى التى تعطى المرأة حقها وتوليها نصيبها من الثقة والاحترام والمسئولية .

نعم ... إن مستوى الأمة له علاقة مباشرة بمكانة المرأة وما السبب فى

ذلك ؟ ما السبب فى أن مستوى الأمة من الأمم يقاس بمركز المرأة فيها ؟ السبب هو ما بدأت به مقالى الماضى من أن الله خلق المرأة والرجل صنوين متعادلين فى الحقوق والمسئوليات ، وهما متساويان فى بيت الزوجية ، وهذه المساواة لا تتعارض مع احترام الزوجة لزوجها وامتثالها لما يطلب ، لأن الله سبحانه ركب فى طبيعة المرأة احترام الزوج وطاعته ، وهذه صِبْغَة من الله سبحانه لا دخل للإنسان فيها ، ولكن المرأة لا تحترم إلا الزوج الذى يحترم نفسه أولا ويحترمها هى ثانيا ، والرجل الذى يطيل لسانه على زوجته بالإهانة والعدوان ويفرض سلطاته فى بيته بالقوة وثقل الظل لا ينتظر من المرأة أن تحترمه أو توقره . من الممكن أن تخافه ، والزوج يتحول فى هذه الحالة إلى سجان أو جبار بغيض . والزواج الذى يقوم على رهبة الرجل ليس زواجا إسلاميا لأن الله سبحانه وتعالى نص فى قرآنه الكريم على أن الزواج مودة ورحمة ، والزواج سكن وأنس وثقة متبادلة ، ومن عجب أن الله سبحانه نص على ذلك كله ، ورسول الله ﷺ طبقه ، ومع ذلك فقد هان أمر المرأة فى مجتمعنا ، وهبط قدرها ، فهبط قدر المجتمع كله .

واقرأ هذه الحكاية عن أم معبد الصحابية الخزاعية ، هى عاتكة بنت خالد بن خليف الخزاعية ، كانت متزوجة من ابن عم لها يسمى تميم بن عبد العزى (وكان من خزاعة أيضا) .. وقد كان منزلهما بقُدَيد نزل

عندها النبى ﷺ عندما هاجر إلى المدينة ، وكان معه أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر وعبد الله بن أريقط الدليل لهما فى الهجرة . وتقص أم معبد قصة نزول النبى ﷺ ومن صَحِبَه فى خيمتها ، وكانت امرأة حلوة برزة جَلْدةً ، تسقى وتطعم بفناء الكعبة ، فسألوها تمرا ولحما ليشتروه ، فلم يجدوا لديها شيئا . تقول أم معبد .. (ثم تحكى قصة نزول الرسول عليها بخيمتها قرب قديد أثناء هجرته) ، (وهذا الخبر عند ابن سعد فى الطبقات وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن حجر فى الإصابة .. وغيرهم) .

فهذه سيدة صحابية جليلة لها صيت ذائع فى كتب السيرة ، وكانت قد هاجرت إلى المدينة المنورة لاحقة بالرسول ، وكانت تشتغل بالتجارة فتبيع الطعام ، وتسقى الناس فى المسجد ، وكانت إلى جانب ذلك سيدة جميلة برزة (أى ذات قوام ملء ظاهر الملامح ، وكان رسول الله ﷺ يكرمها ويعرف لها فضلها ، ولم ينكر عليها قط الاشتغال بالتجارة ، فلماذا لم يتنطع عليها أحد من الناس ، ويقول إنها لا يجوز أن تعمل فى التجارة ؟ ولماذا لم يطمع فيها أحد من الناس مع أنها كانت جميلة حسنة الهيئة ؟

لأن الناس فى العهد النبوى كانوا مؤمنين حقا لا ينظرون إلى

سفاسف الأمور فإن الحجاب ـ وحده ـ لا يصنع العفة ، وإنما العفة تنبع من داخل الإنسان ، وما دامت أم معبد امرأة مؤمنة جَلدة (بفتح الجيم) أى ذات قوة وجلد تعرف كيف تصون نفسها ، فلا مدخل لرجل عليها ، والرسول صلوات الله عليه يعرف أنها تتاجر ، ولكنه لم يتدخل فى شئونها ، ولا هو عاب عليها شيئا .

وأنا لا أرى بأسا بالحجاب ، بل تعجبنى المرأة المحجبة على أن يكون الحجاب نابعا من إيمانها ، ورأيها ، لا طاعة لأمر رجل . واحترام المرأة لا يكون بفرض الحجاب عليها ، وإنما يكون بالثقة فيها وإعطائها حقها ، وإذا أنت درست تاريخنا الحضارى وجدت أن الإصرار على الحجر على المرأة وحبسها فى البيت يعتبر من أكبر أسباب تخلفنا ، لأننا حرمنا مجتمعنا من جهود النساء وعقولهن وفكرهن ، ومن عجيب الأمر أن الذين يستذلون المرأة هم الذين يعيشون من وراء عملها . وكنت أتمشى فى شوارع قريتنا ، وأتعجب .. الرجال مجتمعون على المصاطب كالتماسيح الراكدة يقضون أوقاتهم فى الهذر والكلام الفارغ ، وشرب الشاى كوبا بعد كوب ، والنساء فى البيوت يشقين فى العمل وإعداد الطعام ورعاية الأولاد ، وفى كل بلاد الإسلام يقوم النساء بأضعاف ما يقوم به الرجال من العمل ، وثروة إيران قبل البترول كانت من

السجاجيد وهى صناعة نسوية ، النساء يصنعن السجاجيد ، والرجال يبيعونها ، ويضعون الأثمان فى جيوبهم ، ويجلسون فى المقاهى يدخنون التمباك !

واسمع الحكاية التالية من العصر النبوى أيضا . وأنت ترى أننى لا أرجع إلى سواه حتى أقيم على المتشدقين الحجة البالغة فى أمر النساء ، أم سلمة وهى أسماء بنت يزيد بن السكن من المبايعات ، وهى ابنة عم معاذ بن جبل كان لها رأى وفصاحة ، وكانت خطيبة النساء لرسول الله ﷺ ، رُوِىَ أنها جاءت إلى الرسول ﷺ فقالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله . أنا وافدة النساء إليك ، ومن ورائى جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولى ، وعلى مثل رأيى ، إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء ، وآمنا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وأنكم معشر الرجال فُضلتم علينا بالجُمَع (أى صلوات الجمعة) ، والجماعات (صلوات الجماعة) ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل ، وأن الرجل إذا خرج حاجا أو معتمرا ، مجاهدا حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفنشارككم الأجر يا رسول الله ؟ فالتفت الرسول ﷺ إلى أصحابه ، فقال : « هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ »

فقالوا : لا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « انصرفى يا أسماء وأعلمى من وراءك من النساء أن حُسْنَ تَبَعُّل إحداكن لزوجها (أى إخلاصها له) ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للنساء » فانصرفت أسماء تهلل وتكبر استبشارا بما قاله لها النبى ﷺ .

هذا وقد بايعت أسماء النبى ﷺ فى السنة الأولى من الهجرة وروت عنه ﷺ عدة أحاديث ، وقد كانت أسماء من المجاهدات ، كانت تسقى العطشى ، وتضمد الجرحى ، وقتلت بعمود خيمتها تسعة من الروم فى وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وقد ذكر الذهبى أن أحاديثها فى كتب السنة الأربعة .

عقد زواج لا عقد شراء !!

هذه امرأة صحابية جليلة ومجاهدة باسلة أتت فى الحقيقة لتشكو من الرجال إلى رسول الله ﷺ ، لأن النساء كن يقمن بالعمل الجليل ، ثم يزعم الرجال أنهم أفضل منهن ، وهى هنا تقرر باسم نساء المؤمنين جميعا أن الرجال لا يفضلون النساء إلا بصلوات الجُمَع والجماعات والجهاد ، ومع ذلك فقد كانت هى مجاهدة لا تقف مشاركتها فى الحروب على سقى المقاتلين وتضميد الجرحى ، بل هى تقاتل فى سبيل الله ، ورسول الله ﷺ يعجب بها ، ويقول لها إن قيامها بحق بيتها يعدل كل ما يزعم الرجال لأنفسهم من الفضل على النساء .

ومثل هذا الخبر العظيم لا تقرؤه إلا فى الكتب الأولى فى السيرة النبوية والصحاح والمسانيد ؛ لأننا دخلنا بعد ذلك فى عصور التخلف والتأخر ، ومن أكبر مظاهر التخلف هى تلك الوصاية التى فرضها الرجال على النساء ، ويدور فى خاطرى أن ظلم الرجل للمرأة جاء من أن الرجال أنفسهم فى تلك العصور كانوا جبناء أذلاء ممتهنين ، يفعل بهم الحكام ما

يريدون ، وكأس الذل هذه التى كان الرجال يشربونها كانوا يسقونها للنساء .

وخذ مثلا العصر التركى ، كم تظن عدد جنود بكوات المماليك الذين كانوا يحكمون مصر كلها لحساب الأتراك ؟ لم يزد عددهم بحسب تقدير رجال الحملة الفرنسية على خمسة آلاف فارس ونحو عشرين ألف راجل ، معظمهم خدم للفرسان ، وهذه الفئة القليلة كانت تحكم مصر كلها ، وسكانها كانوا لا يقلون عن أربعة ملايين ... وما يقال فى المماليك المسلمين الذين أسدوا – على ما بهم من عيوب – خدمات طيبة للحضارة الإسلامية ، يقال من باب أولى فى الإنجليز الذين كان جيشهم فى مصر بضع عشرات من الألوف ويحكمون شعبًا كان تعداده يقترب من العشرين مليونا فى ذلك الوقت ... والأنكى من ذلك أن المسلمين فى إندونيسيا كانوا يقتربون من التسعين مليونًا وكانت تحكمهم هولندا التى لم يكن يزيد عددها عن مليونين .

فأين كان الرجال المسلمون الأشداء الذين لا يجدون ما يظهرون فيه رجولتهم إلا النساء المسكينات اللاتى كن يقمن بأكبر نصيب من العمل .. ولو أننا كنا رجالًا أعزة كما كان الرجال فى عصر الرسول ﷺ

لما أفرغنا رجولتنا فى الضعفاء وتركنا العالم الإسلامى يترنح تحت أقدام المستعمرين .

ومن أعجب حقائق التاريخ أن ثلاثا من نساء التاريخ قدن بلادهن فى الصراع مع المسلمين وغلبنهم : إيزابيلا ملكة قشتالة ، وهى صاحبة النصيب الأكبر فى الاستيلاء على غرناطة ، وكاترين الثانية الروسية وفى عصرها وعلى يد قوادها وقعت هزائم الأتراك العثمانيين الأولى ، وعلى يدها بدأ مرض دولتهم العضال ، وفى عهد الملكة فيكتوريا استولى الإنجليز على ثلث العالم الإسلامى ، ثم يفتل الرجل منا شواربه ويقول : أنا رجل ومن حقى أن أتزوج مثنى وثلاث ورباع !

وكلامه حق يراد به باطل .. فلو كان رجلًا مثل الصحابة الفرسان بالنهار والرهبان بالليل لقلنا له تزوج من تشاء فى حدود الشرع ، فأنت رجل رسالة وعمل حضارى عظيم .. ومثلك يُفرح بنسله .. أما أبناء عصرنا الذين يحصرون الرجولة فى الزواج دون أن يعطوا الأمة الإسلامية حقوقها عليهم ، فهم كمن يأخذ بعض الكتاب ويترك بعضه .. يأخذ ما فيه متعة وراحة ويترك ما فيه عبء وواجب .

ولهؤلاء جميعا أقول : يا فرحتنا تزوجوا أيها السادة كما تشاءون ، تزوجوا وطلقوا وألقوا النساء المطلقات فى الشوارع ، تزوجوا وأنجبوا فأنتم

أرانب ، أنجبوا ثم ألقوا أولادكم فى الطرقات ، لكى يعيشوا فى صناديق القمامة .

افعلوا ذلك كله ، وقولوا إنه الشرع . فهل من شرع الله أيها الناس أن تكون بلاد الإسلام جميعا فى عالم التأخر والفقر والمجاعة ؟ ! صدقونى إننا لو فهمنا شرع الله وطبقناه لكنا فى مقدمة شعوب الدنيا ؛ لأن الشرع شهامة وعزة وعمل واحترام للنفس ، وصيانة للحقوق ، فانظروا فى مجتمعنا وقولوا لى : كم فيه من ذلك كله ؟

وموضوع الإساءة إلى النساء عندنا فى زيادة ، وقد لاحظت أن أغلب ما يعرضون علينا من الأفلام والمسلسلات لا يخلو من منظر رجل يصفع امرأة على وجهها ، ويلقى بها على الأرض ويسبها أقذع السب ، ولم يكن هذا فى مجتمعنا الماضى أبدا ، وما كان يفعل هذا إلا الجاهلون ، وكنا ننكره عليهم أشد الإنكار ، فالآن يعلمون أولادنا إياه ، حتى يعم ويشيع ، وعلى طول ما عشت ما رأيت رجلا يصفع امرأة على وجهها إلا فى أفلام هذه الأيام .

دعوا المرأة أيها الرجال ، فهى تعرف كيف تصون نفسها ، وهى ليست فى حاجة إلى رقابة منكم ولا رعاية ، ونساؤنا والحمد لله بخير ، الغالبية العظمى

حصينات وبعيدات جدا عن الفساد ، ومعظمهن اليوم يعملن ويكسبن وينفقن مع أزواجهن على البيوت والأولاد ، فلا وجه لكم فى ظلم النساء ، دعوهن فهن أعرف بدينهن منكم ، ولسن بحاجة إلى تعذيب !! ، إنهن بحاجة إلى أزواج كرام أعزة على أنفسهم ، يعرفون كيف يكسبون احترام المرأة بالحب والمودة والتزام شرع الله عملا وقولا ، ولا ترتفع يد واحد منهم لتهوى بصفعة على وجه امرأة ، فالمجتمع الذى تصفع فيه النساء لا يمكن أن يكون مجتمعا صالحا أبدا .

نرى فعلا أن المرأة الزوجة رقيق لزوجها ، يبيع فيها ويشترى ، ويتزوج عليها دون علمها ويطلقها ويلقى بها فى الطريق إذا شاء ، وليس لها عنده إلا مؤخر الصداق ونفقة أحد عشر شهرا وحضانة الأولاد الذكور إلى السابعة والبنات إلى التاسعة ، وهذه النفقة ومؤخر الصداق لا تدفع طواعية إلا فى النادر ، لابد أن تلجأ المرأة إلى القاضى الشرعى—والقاضى الشرعى من نفس مستوى الذى كتب شروط ذلك العقد .

وقد حكيت فى مقالى الماضى أن القاضى الشرعى الذى حكم لامرأة مطلقة ذات ثلاثة أولاد بنفقة قدرها خمسة جنيهات ، قال لى عندما سألته فى الموضوع : كلهن يستاهلن الحرق ! وكان هذا فصل الخطاب بينى وبينه ..

أعود إلى سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه فأقرأ أن زوجة قيس بن الشماس ــ وكان من كبار الصحابة ــ طلبت منه الطلاق فأبى فذهبت إلى رسول الله وحكت له قصتها فقال لها ما معناه :

ــ وماذا يعيب قيسا عندك .

قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، والله ما أعيب عليه شيئا إلا الدمامة (أى القبح) .

فقال لها الرسول : يطلقك وتردين عليه ما أعطاك (فى الصداق) ؟

قالت بلى يا رسول الله ، فردت عليه حديقة كان قد أصدقها إياها وطلقها .

فهذه سيدة صحابية مؤمنة تطلب الطلاق من زوجها لأنه دميم ، ورسول الله يرى ذلك مبررا كافيا للطلاق ويطلب إلى صاحبه أن يطلق المرأة ويطلق سراحها ، فأين هذا والله من عقد الزواج الذى أتحدث عنه فى هذا المقال ؟

وقد صورت لنا الكاتبة الكبيرة حسن شاه فى قصتها البديعة « أريد حلا » مأساة المرأة مع الزوج الجلاد ومآسيها فى المحاكم الشرعية ، وأرتنا بالفعل صورا تكسر القلب . ولا أنسى أبدا مأساة المرأة الكريمة التى

قضت ثلاثين سنة مع زوج تخدمه وترعاه وكافأها فى النهاية بالطلاق والإلقاء فى الطريق ، والمرأة المسكينة اضطرت إلى أن تعمل شبه خادمة لتعيش ، والقاضى الشرعى يؤجل قضيتها من جلسة لجلسة ومن سنة لسنة حتى انتقلت إلى جوار ربها ، والقاضى عندما يناديها ليقرأ عليها قرار تأجيل جديد يعلم أن الله سبحانه رحمها واختارها إلى جواره ، وسقطت قضيتها .

* * *

ومع بشاعة أحوال المسلمات فى بلادنا فإن هذا ليس موضوع بحثى هذا ، لأننى أريد هنا شيئا أعتقد أنه جدير بالعناية والنظر من جانب كل من يهمهم مستقبل هذا البلد ، أريد أن أقول : إن عقد الزواج كله ينبغى أن يعاد النظر فيه . لأن الأحوال تغيرت ، ونحن نعيش اليوم فى ظل ظروف لم يعرفها كبار فقهاء المسلمين الذين قاموا على تطبيق أحكام الشرع ، بعد أن استخرج أسسه من القرآن والسنة أعلام الفقه الإسلامى خلال القرون الثلاثة الأولى ، وأنا يعجبنى جدا ما يقوله مالك والشافعى وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل ، وأشعر بأن هؤلاء الأربعة ـ بالإضافة إلى محدثين أجلاء عاصروهم وأخص بالذات البخارى ومسلم ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه وعبد الرحمن بن القاسم وآل عبد الحكم ـ هؤلاء جميعا من أعاظم المفكرين فى تاريخ الحضارة العالمية ، لكنى لا أحب أن يقال لى : قال الحافظ ابن كثير وقال الحافظ ابن

حجر وقال أبو نعيم فى الحلية وقال السلفى ، لا عن عدم تقدير لهؤلاء الأجلاء ، ولكن لماذا أرد السواقى إذا كان أمامى النهر كله ؟ وهنا يعجبنى ابن حزم - وكان يقول بمقالتى تلك ، وفى كتبه الجليلة ما يدلك حقا على أنه ليس لدينا إلا الكتاب والسنة ..

وأنا كذلك لست من محترفى التفاؤل ، فإن خطباء المساجد ومن يسمون أنفسهم بالمفكرين المسلمين يصورون لك المجتمع الإسلامى الماضى على أنه خير المجتمعات ، وأن المسلمين أجمعين كانوا إخوة أشقاء متحابين ، لأن فى القرآن آيات تنص على ذلك ، وهم ينسون أن كل هذا مرهون بشروط ، فإن القرآن مثلا يقول فى الآية ١٠٣ من سورة آل عمران : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ ..

ونحن لم نعتصم بحبل الله جميعا فى بعض فترات التاريخ الإسلامى ، وعدنا أعداء يضرب بعضنا رقاب بعض ، وهنا لم نعد نستحق رحمة الله ولا رضاه .

ونحن نتشدق دائما ، ونقول إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وهذا حق لاريب فيه ولكن المشكلة هى فى الإنسان المسلم الذى يجب

عليه أن يثبت أنه صالح أيضًا لكل زمان ومكان .

ولأننى أومن بأن شرع الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، فإننى أقول إننا نحن ينبغى أن نتغير مع الزمان والمكان ، ونعمل فكرنا وننظر فى تطور الزمان لكى نكون صالحين لزماننا ، فإذا كنا صالحين لزماننا استحققنا نعمة الإسلام الصالح لكل زمان ومكان ..

ولهذا فإننى أرى إعادة النظر فى كثير من الأشياء التى تقوم على أساسها المرأة والرجل والزوجة والزوج .

إن عقد الزواج المكتوب يجب أن يعاد النظر فيه ... إن هذا العقد نفسه ليس أصلًا من أصول الزواج ، وفى العصور الإسلامية الأولى لم يكن الناس يشترطون كتابة عقد الزواج ، ولا أدرى لماذا لم يفكر أحد من الباحثين فى الشئون الإسلامية أن يكتب لنا دراسة فى تاريخ عقد الزواج عندنا ، ليس لدينا عقود زواج من القرون الأولى إلا فى مصر والأندلس . أغلب الظن أن عقود الزواج لم تصبح أساسية ووثائق رسمية إلا فى العصر التركى . والأتراك العثمانيون – رغم ما نظلمهم به – كانوا الشعب الإسلامى الوحيد الذى عرف السجلات المنظمة ووثائق الدولة .

المهم أننا عندما دخلنا فى العصر الحديث وضعنا صيغة رسمية لعقد

الزواج ، الصفحة الأولى من العقد فيهاالبيانات الأساسية : اسم الزوج والزوجة وتاريخ الزواج والصداق المقدم والمؤخر وما إلى ذلك ، وبقية العقد شروط وإلزامات للمرأة تحس وأنت تقرؤها أنها شروط ظالمة ، إن هذا العقد فيما أظن وضع سنة ١٩٢٩ ، ويخيل إلى أن هذا العقد لا يحرر بين رجل وامرأة بل بين رجل وأهل الزوجة ، وهم ملاكها الأصليون وإليهم تعود إذا طلقها زوجها ، وفى تلك الأيام لم تكن هناك مشكلة ، لأن البيوت كانت فسيحة وخير الله كان كثيرا والزوجة المطلقة تعود إلى بيت أبيها أو أخيها ويعطونها حجرة تقيم فيها مع أولادها ، وطبلية الطعام التى كان يأكل عليها عشرة يأكل عليها خمسة عشر ، لا يهم ربما زادوا رغيفين أو ثلاثة ، والمطلقة كانت تعامل على أنها خادمة ، فهى قد هبطت بالطلاق فى المستوى الاجتماعى ، اللهم إلا إذا كانت حلوة وسمينة وبيضاء ، هنا تتزوج مرة ثانية وثالثة والأولاد يتربون فى الشارع ، أما اليومفقد تغير ذلك كله . عزت المساكن وغلا الطعام ، وبيت الأخ لم يعد مفتوحا لأخته المطلقة ، وكل إنسان مثقل بعياله ، والمطلقة ليس أمامها إلا الطريق وعيالها يصبحون كارثة على أسرة الأم ومستقبلهم هو الضياع .

ثم إن النظام الاجتماعى كله قد تغير ، فإن الدولة — أى الأمة — أصبحت ملزمة بأن تعلم وتربى وتطعم عن طريق دعم الغذاء وضمان

الأمن الغذائى ، وعليها كذلك أن تعالج وتدبر المواصلات ، بل عليها أن تقدم التسلية عن طريق الراديو والتليفزيون .

ومعنى ذلك أن الزواج لم يصبح عقدا بين رجل وامرأة أو بين رجل وأسرة امرأة ، بل أصبح فى الحقيقة عقدا بين ثلاثة أطراف : الزوج والزوجة والدولة ، وفى هذه الحالة تقوم الدولة بالعبء الأكبر ، فإذا كان الأب (أو الأب والأم) ينفق على ابنه أو ابنته قرشا فإن الدولة تنفق ثلاثة قروش .

إننى أطالب بدراسة عقد الزواج دراسة متأنية عادلة على ضوء الظروف الطارئة ، وفى ظل الثوابت الشرعية التى لا يستطيع مسلم المساس بها ، والتى هى فى حقيقتها جماع العدل والحق .

إننا نريد الرحمة والعدل بالمرأة .. ونريد تهيئة الظروف المناسبة لتربية الأبناء .. ونريد أسرة تقوم على قواعد مكينة ... ونريد أن تكون الدولة ــ لأنها المسئولة الكبرى ــ على علم بكل ما يدور فى عقد الزواج .. وهذا العقد لابدّ أن يقوم على وضوح ومعلومات صحيحة ، لا على غش أو زيف أو معلومات مبتورة أو محرفة !!

إن شرع الله للزوجة والزوج معا .. وهو عدل لكليهما .. وليس للزوج وحده !!

ثم إننا فى عصر التأمينات الاجتماعية ، والمفروض أن التأمين يشمل كل المواطنين ، ولكنه مع الأسف لا يشمل بيت الزوجية ولا حقوق المرأة ، ولا أدرى لماذا لا نطالب بعمل تأمين على الزوجية ، تأمين يضمن للزوجة وأولادها ولو حداأدنى من حقوق الأمان فى حالة الطلاق ؟ أعتقد أن من حق وزارة التأمينات أن يكون لها وجود فى كل زواج ؛ لأن واجبهاأن تحمى الزوجة المطلقة أولا ، ثم من واجبها كذلك أن تؤمن حقوق الدولة التى تقوم بمعظم نفقات الحياة الزوجية فى أيامنا هذه.

* * *

تلك أفكار أنا أطلقها لكى نفكر فيها ، وأنا أعرف أن أحدا من رجال الدولة لن يقرأ ما أكتب – لا أنا ولا غيرى من الكتاب – فنحن عندهم أدوات تسلية ، ولكننى أرجو إخوتى المواطنين أن يفكروا فيها ، فإن موظفى الحكومة لا يريدون أبدًا أن يساعدونا على الخروج من العالم الثالث ، لأنهم « كده مبسوطين أربعة وعشرين قيراطا » أما نحن فتعساء ٢٤٢٠ فدانا .

أتدرى ماذا ينطبق علينا فى هذا البلد السعيد ؟ هو قول فولتير على لسان الوزير زديج أو صديق : مولاى ! إن الحال على أسعد ما يكون فى أسعد البلاد !

الفهرس

رقم الإيداع ٢٧٣٩ / ٨٨

الترقيم الدولى ٣ ــ ٣٢ ــ ١٤٣١ ــ ٩٧٧

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر ــ المهندسين ــ جيزة

المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل ــ أرض اللواء

☎ ٣٤٥١٧٥٦ ــ ص . ب ٦٣ إمبابة